مذكرات أحمد الكاتب
سيرتي الفكرية والسياسية.. من نظرية الإمامة..إلى الشورى

عندما أبصرت النور صباح عيد الفطر من سنة 1372 المصادف 13 حزيران 1953 في مدينة كربلاء في العراق ، كان النظام الملكي في العراق يلفظ أنفاسه الأخيرة ، في حين كانت المعارضة العراقية تتصاعد وتتخذ طابعا يساريا "شيوعيا" أو هكذا كان النظام يوحي الى الناس وخاصة المؤمنين منهم. وعلى رغم أن مدينة كربلاء ذات الطابع الديني كانت تقف موقفا سلبيا من النظام الملكي ، إلا انها شهدت ولادة حركة إسلامية للوقوف في مواجهة الموجة الإلحادية ، وذلك بقيادة مجموعة من رجال الدين بقيادة السيد محمد الشيرازي ، وكان والدي (عبد الزهراء بن عبد الأمير بن الحاج حبيب الأسدي) واحدا من شباب تلك الحركة ، وكان يبلغ العشرين من عمره عندما تزوج في خريف 1952 وعاهد والدتي (شكرية بنت عباس بن علوان الهر) على ان يقدما باكورة زواجهما في خدمة الدين.

وكان أبي وجدي يكسبان قوتهما من تجارة خاصة بكربلاء هي تجارة (المسابح و الترب الحسينية) التي يسجد عليها الشيعة ، ولهما مع عدد من أعمامي وأقاربي بضعة محلات في شارع علي الأكبر الذي يصل بين مرقد الأمام الحسين ومرقد أخيه العباس.

ومن المعروف أن مدينة كربلاء ، بنيت حول قبر الإمام الحسين بن علي الذي قتل على أيدي الجيش الأموي في عهد يزيد بن معاوية. وكانت في البدء قرية صغيرة ثم تطورت الى مدينة تضم حوالي خمسين ألفا من العرب والعجم الذين هاجروا اليها في القرون الماضية. ويغلب عليها الشيعة الامامية الاثنا عشرية ، وفيها حوالي مائتي مسجد كلها للشيعة ما عدا مسجد واحد أو اثنين لأهل السنة يقع أحدهما في شارع النجارين ، وهو خاص لموظفي الحكومة وبعض الأفراد من السنة. وكنت تتعرف عليه بسهولة من خلال الأذان المختلف في بعض العبارات وفي التوقيت المبكر صباحا وعند الغروب.

عندما كنت في الخامسة من العمر ، كان بيتنا يقع في شارع الإمام علي بالقرب من ذلك المسجد. ولكن والدي لم يكن يصلي فيه ، وإنما كان يدأب على الصلاة جماعة إما في الحرم الحسيني خلف السيد مهدي الشيرازي أو خلف رجل دين آخر اسمه السيد محمد رضا الطبسي في مسجد يقع في باب

العلقمي في الشــرق من مرقد العبــاس بن علي . وكــان هنــاك مســجد آخر قــريب من بيتنا أتــذكر ان والــدي مع مجموعة من أصدقائه كانوا يقيمـون فيه محفلا أسـبوعيا للقـرآن الكـريم ، يقع في نفس الشـارع الى الشـمال من سـاحة البلـوش. وذلك في بداية مجيء عبد الكريم قاسم الى السلطة عام 1958

وفي تلك السن (الخامسة) علمتني والـدتي الأبجدية وقـراءة القرآن ، بعد ما كانت تنتهي من أعمال المنزل خاصة وأنني كنت ابنها البكر. وعندما بلغت السابعة أخذني والدي الى مدرسة أهلية إسلامية حديثة هي (مدرسة الأمـام الصـادق) والـتي كـان يـديرها الخطيب السـيد مرتضى القزويـني ، وذلك لأن بعض المتـدينين ، وأبي منهم ، كـانوا لا يزالــون يلــتزمون بقــرار المقاطعة الــذي أصدره مراجع الدين الشيعة في بداية تأسيس العـراق الحـديث ، ضد المـدارس الحكومية الـتي رأوا فيها وسـيلة لإفسـاد الشـباب وإبعادهم عن الـدين وعن سـلطة المراجع الدينية في آخر الأمـر. إضــافة الى قــرار مقاطعة الدولة العراقية ودوائرها ووظائفهــا. ورغم أن تلك المدرسة كـان معترفا بها من قبل وزارة المعـارف وتطبق المنهــاج الدراسي الحــديث إلا انها كــانت تنطــوي على برامج دينية مكثفة وتحت إشراف وادارة رجال الدين.

وكنت متشـوقا لـدخول المدرسة بـالطبع، ولكن المـدير رفض تسجيلي فيها لأن عمري حسب الجنسية كان يقل بثلاث سـنوات. وكان ذلك بسبب خطأ أو تساهل ارتكبه كاتب النفوس في إحصاء عـام 1957 وهكـذا رجعت خائبا مع أبي الى الـبيت . ولم يفكر أبي أبدا بإرسالي الى المدارس الحكومية.

وفي سنة 1960 انتقلنا الى بيت آخر في شارع العبـاس في محلة باب الخان ، فسجلني والدي لـدى أحد الكتّـاب وهو الشـيخ عبد الكريم الذي كان يتخذ من غرفة في زاوية من صحن العباس مدرسة لــه، يعلم فيها حــوالي خمســين طالبا القــراءة والكتابة والحساب ويركز فيها على قراءة القرآن الكـريم ، وكـان علي أن اجلب معي مقعدا للجلوس عليه بالإضافة الى الدفاتر والأقلام.

من يعيش في كربلاء في تلك الأيـام كـان لا بد ان يتعـرف على قصة استشـهاد الإمـام الحسـين بصـورة تلقائيـة، فكـربلاء مدينة أسست حـول الحسـين وكـانت تسـمى في القــرون الوســطى (مشهد الحسين) وأينما ذهب المرء ومتى ما ذهب هناك مجـالس حسينية تقام في كل مسجد وفي كل حـارة وفي كل زقـاق وفي

البيوت خلال شهري محرم وصفر وفي مناسبات عديدة أخرى هي ذكريات وفاة الأئمة الاثني عشر الآخرين ، حيث تتشح مدينة كربلاء بالسواد وترتفع الرايات السود في كل أنحائها وتخرج مواكب العزاء من كل صوب فيها.

وفي ذات ليلة رأيت في منامي وكأن معركة كربلاء قد نشبت ورأيت الإمام الحسين يصرخ بندائه الشهير: ألا من ناصر ينصرني؟ ألا من معين يعينني؟ ووجدتني بالطبع التحق مع جيش الإمام الحسين ضد جيش يزيد. فقصصت رؤياي على والدتي التي شجعتني ورأت في ذلك علامة مبشرة بالخير وتمنت لي أن احشر مع سيد شباب أهل الجنة. وكانت أمي تقول لي بأننا من نسل حبيب بن مظاهر الأسدي ، باعتبارنا من قبيلة بني أسد ، وكان حبيب أحد زعماء الكوفة الذين دعوا الإمام الحسين الى القدوم الى العراق ، وثبتوا على مواقفهم ، وقد قتل وهو يذب السهام عن الإمام أثناء صلاته يوم عاشوراء. ولذلك دفن في ضريح خاص ، ولا يزال يوجد له صندوق خاص أمام ضريح الإمام الحسين يقع على يسار الداخل الى الحرم ، وقد كنت أجد علاقة روحية خاصة بيني وبينه عندما ازور الإمام الحسين كل أسبوع ، وأقف متأملا ومستلهما ومقبلا لقبره ومتماهيا معه وعاقدا العزم على السير على دربه في نصرة الإمام الحسين في معركته الخالدة.

وإذا كان الإمام الحسين قد قتل قبل حوالي أربعة عشر قرنا ، فان ثمة معركة قادمة وإمام منتظر هو الإمام الثاني عشر الغائب (محمد بن الحسن العسكري) الذي كانت أمي تعدّني لأن أكون جنديا في صفوفه و "واحدا من أنصاره الثلاثمائة والثلاثة عشر المخلصين ، الذين يشكلون شرطا لظهوره" وكانت تقول لي أيضا بأن عليّ ان التزم بأرفع الأخلاق والآداب حتى أكون واحدا من أولئك الأنصار وأحظى بشرف اللقاء بالإمام المهدي الذي سوف يظهر قريبا ويملأ الأرض قسطا وعدلا بعد أن ملئت ظلما وجورا.

كانت والدتي تحكي لي قصصا عن لقاء الإمام المهدي بالشيعة المخلصين من ذوي الأخلاق العالية والالتزام الديني الدقيق. وكانت هناك في تلك الأيام عادة لدى بعض المؤمنين تتمثل في زيارة قبر الإمام الحسين أربعين ليلة جمعة أو زيارة مسجد السهلة في الكوفة أربعين ليلة أربعاء ، والإكثار من الصلاة والدعاء أملا في لقاء الإمام المهدي بعد ذلك. وكانت تحكي لي خصوصا قصة (الرمانة) وهي قصة كانت متداولة عن نجدة الإمام المهدي لشيعة البحرين الذي تعرضوا لامتحان قاس من أحد

الحكام (السنة) الـذي أحضر رمانة مكتـوب عليها بشـكل بـارز أو ناتئ (اشهد أن عمرا ولي الله) وطالبهم بالانتقال من التشيع الى التســنن وإلا فســوف يقتلهم ، مما دفع الشــيعة الى طلب مهلة ثلاثة أيام للتشاور والاستغاثة بالإمام المهدي ، فما كان منه إلا أن حظر في اليــــوم الأخــــير ولامهم على أخذ المهلة ثلاثة أيــــام ، وكشف لهم عن سر الرمانة ، وأخبرهم عن وجـود قـالب حديـدي في بيت الــوزير البحريــني في المكــان الفلاني ، فجــاء علمــاء الشــيعة وأخــبروا الحــاكم بسر الرمانة ، فعفا عنهم. وهي قصة قرأتها بعد ذلك في كتاب كـان ينتشر في كـربلاء في تلك الأيـام. ورغم انه لا يذكر التاريخ ولا أسماء العلماء إلا ان مضـمون القصة يحكي عن حضـور الإمـام المهـدي ونجدته لشـيعته في أوقـات المحن العصـيبة. وهو ما عـزز إيمـاني بوجـود ذلك الإمـام الـذي نشـأت على ان أكـون جنـديا من جنـوده عند ظهـوره. أو هكـذا ربيت.

وفي تلك السنوات الأولى وربما قبل ان اكمل العاشرة ، سـافرنا ذات يـوم الى مدينة سـامراء لزيـارة قـبر الإمـامين علي الهادي والحسن العسكري وسـرداب غيبة الإمـام المهـدي ، وكنا نستأجر في العادة غرفة لدى أحد البيوت من أهل سامراء الذين كانوا ينتمـون الى المـذهب السـني ، وأتـذكر أن ربة الـبيت الـتي جلست تحـادث والـدتي أحبت ان تـداعبني فعرضت علي الـزواج من ابنتها ، ولكني رفضت بسرعة. ولما سألتني متعجبة : لمـاذا ؟ قلت لها بصــراحة طفوليــة: لأن بنتك ســنية مثلــك! مما ســبب لوالدتي حرجا كبيرا.

انتظرت ثلاث سنوات في الكتّاب ، حتى أصبح عمري رسميا ســبع ســنوات ، فــالتحقت بمدرسة أخــرى هي (مدرسة حفــاظ القرآن الكريم) التي أسسها السيد مهدي الشيرازي عـام 1960، وكـان يـديرها الشـيخ محمد ضـياء الزبيـدي. ولكـني انتقلت الى الصف الثـالث مباشـرة مع أتـرابي ولأني كنت قد قطعت شـوطا لدى الشيخ عبد الكريم. كان ذلك في عام 1963

وكانت هذه المدرسة دينية بحتة وتدرس برامج في القـرآن والتفسير والتاريخ الإسلامي والأخلاق والفقه والحساب ، كلها من وضع وتـأليف السـيد محمد الشـيرازي ، وأسـاتذتها من المعممين الشباب كالشيخ جعفر الهادي والشـيخ كميل عبد الكـريم والسـيد عبد الحســين الفــائزي والشــيخ عبد الحســين والســيد إبــراهيم الموســوي، ولم تنفتح المدرسة على الــدروس الحديثة مثل اللغة الإنجليزية والجغرافيا والعلوم إلا في السنة الخامسة أو السادسة

، وذلك عنــدما حــاولت إدارتها التقــدم الى امتحانــات البكالوريا وطلب الاعــتراف الرســمي بها ، وهي محاولة فشــلت حــتى تم إغلاقها فيما بعد عندما جاء حزب البعث الى السلطة.

ولم يكن معظم طلبتها يحتــاجون الى البكالوريا أو ينــوون التوظف لـــدى الحكومة العراقية ، فقد كـــانوا ينتمـــون إما الى الجالية الإيرانية المعارضة للشــاه ، أو الى العراقــيين المتــدينين الذين كانوا يلتزمون كوالدي بالحكم الشــرعي ويرفضــون إدخــال أبنائهم الى المدارس الحكومية.

كما قلت كان والدي ذا توجه ديـني وكـان يـدير حلقة قرآنية في أحد المسـاجد ويشـارك في معظم المجـالس الحسـينية الكبـيرة الــتي تعقد في كــربلاء ، وكــان يأخــذني معه بــالطبع . وكــانت المواضـيع الـتي يتحـدث فيها الخطبـاء تـدور حـول قصة الإمـام الحسـين وسـيرته وحياته بالإضـافة الى قصة الخلافة والسـقيفة وقصص الأئمة الآخرين مع خلفـاء زمـانهم. ولم أكن أحتـاج لأقـرأ كتبا خاصة حول الموضوع فقد كان الطفل ينشأ في تلك الأجـواء معبأ بثقافة شيعية مركـزة ومتطرفـة. ويعي هويته الطائفية أكـثر من أية هوية أخـرى قومية أو طبقية أو قبليـة. ومع ذلك فقد كـان والــدي المثقف ثقافة شــيعية يحــرص على تدريسي في الــبيت خطب الإمـــــــام علي في نهج البلاغة وخاصة الخطبة المعروفة بالشقشقية ، التي يتحدث فيها الإمام عن قصة الخلافة ويشــتكي من الشــورى والخلفــاء الســابقين ، ويؤكد على حفظها عن ظهر قلب. وهو الذي أعطاني أول كتـاب لأقـرأه بدقة عنـدما كنت في الثانية عشرة. وذلك الكتاب هو (المراجعات) للسيد عبد الحســين شـرف الـدين العـاملي ، وهو عبـارة عن حـوارات شـيعية سـنية أجراها مع شيخ الأزهر في يومه الشيخ سليم البشري ، وقد بدت لي أدلته مقنعة ومستندة الى مصادر السنة ، وقد اعترف الشــيخ البشري في نهاية الحـوار بجـواز التعبد بالمـذهب الجعفـري ، كما أعطاني والـدي في بداية شـبابي كتب الشـيخ محمد جـواد مغنية التي كان والدي يحرص على اقتنائها بالإضافة الى مجلـدات بحـار الأنوار التي كانت تردنا في طبعة حديثة من إيـران. وكـان والـدي يتابع معظم الإصدارات الشيعية في كربلاء والعـراق ولبنـان ، وله مكتبة في زاوية من البيت. وأتذكر من بينها كتابا أصدرته سلسـلة (منابع الثقافة الإسلامية) في كربلاء ، وهو (لمـاذا اخـترت مـذهب أهل البيت) للشيخ محمد أمين الانطاكي الذي تحول الى المذهب الشيعي بعد ان كـان قاضـيا في انطاكيا قـرب حلب. والى جـانب ذلك كان في مدرستنا معلم من أهل الموصل هو (الشيخ محمد

نديم الطائي) كـان سـنيا في السـابق و تشـيع في زيـارة له الى كربلاء على يدي السـيد مرتضى القزويـني. مما عـزز لـدي قناعة قوية بأن المذهب الشـيعي الإمـامي الاثـني عشـري هو المـذهب الحق وأنه يمثل الإسلام الصحيح. ولـذلك كنت انظر نظـرة خاصة تحمل شيئا من التعجب والغضب الى جـار لنا من أهل عين التمر ينتمي الى الطائفة السنية ، وأتساءل: لمـاذا يصر ويعاند ولا يقبل مذهب أهل البيت؟!

و بالإضافة الى مناهج الدراسة العامة التي كنت أتلقاها في مدرسة حفاظ القـرآن الكـريم ، كـانت تربطـني بالمشـرف على المدرسة إمـام مدينة كـربلاء الأكـبر ، السـيد محمد الشـيرازي ، علاقة خاصة، حيث كنت أدأب على الصلاة خلفه وأسـأله مسـائل فقهية كثـيرة وأهب لتقبيل يديه عنـدما يمر من أمـام محلنا في شـارع علي الأكـبر (الـذي كـان يربط بين مرقـدي الحسـين والعباس)، كما يفعل كثير من المريدين ، تقديرا وتعظيما له .

وكان الشيرازي قد أطلق حركة إسلامية نشطة على شـكل (هيئات) لتلاوة القرآن وتجويده وتعليم أحكام الدين ورد الشبهات وما الى ذلك ، وبعد أن كنت أحضر عددا منها هنا وهناك ، بـادرت الى تشكيل هيئة خاصة بطلاب مدرستنا ، لعقد مجلس قرآني كل ليلة جمعة ، وإحياء مجـالس العـزاء في ذكـرى وفيـات الأئمة من آل البيت ، وأسميتها (هيئة دعاة الرسول الأعظم).

وفي عصر ذات يوم جاء أحد زملائي ليناديني ويخـبرني بـأن السـيد الشـيرازي يـدعوني الى بيته أو ديوانيته ، فسـارعت الى تلبية طلبه مسـتغربا ، وعنـدما جلست وقـدم لي الشـاي اقـترح علي أن أقوم بحملة إعلامية تتضمن تعليق لافتات تحمل عبـارات دينية وآيـات قرآنية ، وملصـقات على الجـدران والأعمـدة في الشوارع الرئيسية لمدينة كربلاء ، ومناشير للتوزيع على النـاس ، وأعطاني مبلغا من المال لأشتري القماش والـورق اللازم واذهب الى أحد الخطاطين لكتابتها ، ثم القيـام بعد ذلك بتعليق اللافتـات في الشـوارع الرئيسـية وعلى مـداخل مسـجدي الإمـام الحسـين وأخيه العبـاس. وطباعة المناشـير في إحـدى المطـابع وتوزيعها على الـزوار ، فقمت مع بعض الـزملاء الـذين اتفقت معهم لتنفيذ المهمة ، واستطعنا تغطية المدينة إعلاميا بشكل جيد ، وهكـذا كنا نقوم بالعملية في كل مناسـبة دينية ، وما اكـثر المناسـبات الـتي كانت كربلاء تكتظ خلالها بالزائرين.

وهكذا تعززت صداقتي بالسيد الشيرازي الذي كنت أزوره دائما واحضر مجالسه العامة والخاصة ، وبدأت "أقلده" حتى قبل ان أبلغ وأتكلف بصورة شرعية.

كانت كربلاء في عقد الستينات تجاهد من أجل وقف المد الشيوعي والقومي والإلحادي والغربي الذي غزا العراق ، واتذكر أنى كنت أرافق والدي ذات مرة الى محاضرة يلقيها الخطيب السيد محمد كاظم القزويني في بيت أحد الأصدقاء وكانت له مجالس أسبوعية للشباب دوارة في البيوت ، وكان عمري يناهز الحادية عشرة ، فطرح الخطيب فكرة تخصيص واحد من الأبناء لدراسة العلوم الشرعية ، والتبليغ للإسلام في أوربا وأمريكا. ومن دون أن يقول لي أبي شيئا تلقفت منه الفكرة وعقدت العزم على ان أكون كذلك في المستقبل ، وهو أمر سيرحب به والدي ووالدتي بلا شك. وربما كان السيد القزويني الذي كنت ادأب على حضور مجالسه مع والدي كل أسبوع ، أحد أهم الذين أثروا في حياتي في تلك الأيام ، حيث كنت أتلقى كلماته وتعليماته بكل قبول ، واتذكر أنه كان يحث أهالي مدينة كربلاء على حسن الأخلاق في التعامل مع الزوار ، وبمراقبة حجاب النساء والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فكنت انفذ تعليماته حرفيا وذلك بالطلب من النساء اللواتي يشترين من محلنا أو يتجولن في الشوارع أو يجلسن في المساجد ، ويبدين خصلات من شعورهن ، بالتقيد بالحجاب الإسلامي وتغطية الشعر بدقة ، ولم أكن أجد حرجا لأني كنت طفلا صغيرا ، ولكني في ذات مرة كدت أتلقى علقة من زوج إحدى النساء التي طالبتها بالالتزام بالحجاب ، فزجرني وطالبني بالاهتمام بأخواتي. ولكن ذلك لم يكن ليمنعني عن تنفيذ الأحكام الشرعية والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وعندما بلغت الرابعة عشرة ، اقترح علي السيد الشيرازي أن ارتدي العمامة والجبة ، زي رجال الدين ، وكنت لا أزال في الصف السادس في مدرسة حفاظ القرآن الكريم الابتدائية ، وطلب مني أيضا إقناع عدد من الزملاء للانخراط في سلك رجال الدين ودراسة الفقه والعلوم الإسلامية، فوافقت على الفور ، وأخبرت والديّ بالموضوع فرحبا بالفكرة بسرعة .

كنت مقتنعا بالفكرة وراغبا فيها بل ومنغمسا في الدراسة الفقهية خارج أوقات الدراسة في المدرسة ، واستطعت ان أقنع زميلا وصديقا واحدا هو الشيخ كاظم السباعي ، فارتدينا العمامة في يوم واحد حيث ألبسنا إياها السيد الشيرازي بنفسه ، في

بيته وذلك في سنة 1967. وكان منظرنا غريبا جدا ونحن نمشي في شـوارع المدينة ذهابا وإيابا من الـبيت الى المدرسة ، أطفـالا بزي رجال دين ، من دون لحى أو شوارب ، ثم استطعت ان أقنع بعض الأصـدقاء الآخـرين كالشـيخ محمد أمين الغفـوري والشـيخ صاحب حسين الصادق ، لينضموا الى خطنا. وكان هؤلاء يعيشون في نفس الأجـواء الـتي كنت أعيشـها من حيث العائلة والمدرسة والمحيط.

وبينما كنت أسير ذات صباح من عام 1968 ، وبالذات في 17 تمــوز منه ، من الــبيت الى مدرسة (ابن فهد الحلي) حيث كنت ادرس الاجرومية في النحو أو قطر الندى ، على يدي الشــيخ عبد الحميد المهــاجر، وإذا بي اســمع في الطريق صــوتا ينبعث من الراديو في أحد المحلات ويتجمهر حوله عدد من الرجـال ، وكـان المـذيع هو الضـابط حـردان التكريـتي أحد أعضـاء مجلس قيـادة الثــورة ، وهو يــذيع بصــوت جهــوري بيانــات انقلاب 17تمــوز ، فأسرعت الى المدرسة وأخبرت الأستاذ والـزملاء ، حيث لم يكن من المعتــاد ان يحتفظ أي أحد في المــدارس الدينية بمــذياع أو تلفزيون ، وهما آلتان كانتا محرمتين في عرف المتدينين في ذلك الحين.

لم تكن الحوزة ولا الحركة الإسلامية تهتمان كثيرا بالتطورات السياسية في بغداد ، وكان المتدينون في كـربلاء ، يعيشـون في عصر آخر يضرب بعيدا في أعمـاق التـاريخ ، حيث الصـدر الأول ، وكــانت الثقافة العامة الــتي يتم تــداولها في المجــالس والكتب والمجلات والمحاضــرات تــدور حــول تــاريخ الإســلام ، وقصة الســقيفة والشــورى ، والظلم الــذي لحق بـآل الـبيت والســيدة فاطمة الزهـراء وقصة كـربلاء وكـذلك قصص بقية الأئمة الاثـني عشر مع خلفاء زمانهم الأمويين والعباسيين ، إضـافة الى تفسـير آيات من القرآن الكريم وشرح أحاديث أهل البيت. وكان الخطباء المشهورون في تلك الأيام هم الشيخ عبد الزهراء الكعبي والسيد كاظم القزويني وابن عمه السيد مرتضى القزويني والشيخ هادي الكــربلائي وآخــرون. إلا ان بعض هــؤلاء الخطبــاء كــانوا أحيانا ينتقـدون الحكومة من طـرف خفي ، أو كما كنا نقـول:"يضـربون مسامير" .

وربما كان بعض قـادة الحركة الإسـلامية يتـابعون التطـورات السياسـية ، ولكنهم لم يكونـوا يتحـدثون في الاجتماعـات العامة

والمجـالس الحسـينية أي شـيء عنها ، وكـان السـيد الشـيرازي بالــذات منهمكا في نقــاش ســاخن مع أعضــاء حــزب الــدعوة الإسلامية الذين كانوا ينشطون تلك الأيام ، حول شرعية التطبــير (ضرب الرؤوس بالسيوف يـوم عاشـوراء) والشـعائر الحسـينية ، وقـام الشـيرازي بنفسه بتأسـيس مـوكب خـاص للتطبـير لطلبة الحوزة العلمية حتى يؤكد شرعية هذا الطقس الحسيني ويخرس معارضة المثقفين من الــدعاة وغــيرهم. وذهب الســيد كــاظم القزويـني سـنة 1965 الى الهند فشـاهد الهنـود يقيمـون احتفـالا خاصا بمناسـبة مقتل الحسـين وهو الـركض حفـاة خطـوات على جمر ملتهب ، فقــام بنقل هــذا الطقس الغــريب الى كــربلاء بمساعدة الشيرازي ، مما أثار استنكار المثقفين الـذين اسـتعانوا بالمرجع الأعلى السيد محسن الحكيم ليصدر فتـوى بتحـريم هـذا النوع من تعذيب الذات.

وحصل سنة 1966 احتقان بين جماعة الشـيرازي الـتي كنت انتمي اليها وبين حــزب الــدعوة أو أنصــار (الجمعية الخيرية الإسلامية) الذين كـان ينتمي اليها بعض أخـوالي ، حـول موضـوع التطبير ، وذلك عندما قام أحد أعضاء الحـزب وهو السـيد صـادق طعمة بإلقــاء خطــاب أدان فيه بعض الممارســات العنيفة في شعائر الحسين أيام عاشورا ، فما كان من بعض أنصار الشيرازي إلا ان قـاموا بمظـاهرة والهجـوم على مقر الجمعية في شـارع الإمام علي وتحطيمه ، وقيل ان ذلك تم بإيعاز من الســيد حسن الشيرازي ، الأخ الأصغر للسيد محمـد. ومع ان الحـادث لم يـترك جرحى أو ضحايا إلا انه تـرك شـرخا عميقا في الحركة الإسـلامية الوليدة وبين المتدينين في كربلاء.

لقد كنا في واد وكانت السياسة في واد آخر..

ومع ذلك كانت كربلاء تشهد مهرجانا سنويا تتزين فيه شوارعها وأعمــدتها ومحلاتها بالزينة ويقــام احتفــال كبــير في (الحســينية الطهرانية) التي تقع في حائر الأمـام الحسـين ، والـتي يوجد فيها قاعــات حديثة و كبـيرة جــدا ، ويحضــرها وفــود من كافة أنحــاء العـراق ، وذلك في مناسـبة ميلاد الإمـام علي بن أبى طـالب في 13 رجب من كل عام ، وقد كان المهرجان الثقافي الضـخم يتخذ منذ سنة 1960 طابع التحدي للشيوعية والأنظمة القائمة وخاصة حزب البعث في عهده الأول.

كما كانت كربلاء تشهد في مناسـبات أخـرى كمناسـبة (زيـارة أربعين الإمام الحسن) التي تصـادف في العشـرين شـهر صـفر ، والتي يحضـرها الشـيعة من كل أنحـاء العـراق والعـالم ، ويحتشد فيها مئــات الألــوف ، وتخــرج كل قرية أو مدينة أو قبيلة موكبا

خاصا بها للعــزاء تســتمر على مــدى يــومين ، وتجــوب شــوارع المدينة.

وكان الحـزب الشـيوعي العـراقي يسـتغل في بعض الأحيـان موكبا خاصا ليردد هتافات خاصة تشيد بالاتحاد السـوفيتي و تبجل الإمام الحسين وصحبه الشـهداء في كـربلاء ، في محاولة لكسب تأييد الشيعة المتدينين. وإبعاد تهمة الإلحاد عن نفسه.

وفي الحقيقة كان التيار الديني يشعر بالهزيمة في تلك الأيام أمام الموجة الشيوعية والقومية والغربية و"الإلحادية" التي عمت العـراق في الخمسـينات والسـتينات ، وخاصة الشـباب المثقف والمتعلم ، ولذلك كـان قـادة الحركة الإسـلامية الجديـدة يعملـون من أجل المستقبل البعيد ، وكانوا يؤسسـون لعقـود قادمـة، ومن هنا اختلف الحركيــون حــول موضــوع مهم هو شــرعية القيــادة المرجعية ومدى صلاحيتها والقــدرة على التعويل عليها في قيـادة الشارع الشيعي ، وبما أن الكثير من رجال الـدين كـانوا يحملـون الجنســية الإيرانية ، وكــانوا يبتعــدون نتيجة لــذلك عن العمل السياسي ، منذ تهجـير ونفي عـدد من كبـار المراجع في أعقـاب فشل ثورة العشرين وتقوقع المرجعية على نفسها ، فقد وجــدت الحركة الإسلامية الشابة بقيادة حزب الدعوة نفسها أمام مشكلة ابتعـاد العلمـاء عن السياسة ، فحـاولت تجـاوز المرجعية الدينية بطـرح نفسـها أو بعبـارة أدق وجد حـزب الـدعوة نفسه مـدعوا لطــرح قيادته ونظريته الحزبية وسـيلة للعمل الإســلامي ، ولكن مرجعية الســـــيد محسن الحكيم في النجف والســــــيد محمد الشــيرازي في كــربلاء وقفت في وجه الحــزب ، وقــام الحكيم بإصــدار فتــاوى بتحــريم العمل تحت قيــادة ســرية ، كما قــام الشـــيرازي بشن حملة ثقافية ضد فكـــرة الحـــزب في العمل الإســلامي واعتبارها نظرية غربية مســتوردة تخــالف القيــادة الشرعية (المرجعية) التي تشكل امتدادا لقيـادة الإمـام المهـدي الغــائب ، باعتبــار العلمــاء نوابا عــامين عنه في فــترت (الغيبة الكبرى) وهي الفترة الممتدة منذ وفاة آخر نائب خـاص (علي بن محمد الصــيمري) من (النــواب الأربعــة) الــذين يعتقد الشــيعة الامامية الاثنا عشــرية انهم كــانوا على اتصــال شخصي بالإمــام المهدي في (غيبته الصغرى) التي استغرقت حوالي ســبعين عاما من وفاة أبيه الحسن العسكري سنة 260 هـ وحتى سنة 329 هـ حيث غاب غيبة كبرى وانقطع كل اتصال شخصي به.

وبالتالي فان الحركة الإسلامية كانت تصطرع فيما بينها حول شـرعية الحـزب أو القيـادة المرجعية ، وتخـوض جـدالات عنيفة ،

وأتـذكر أن السـيد حسن الشـيرازي نشر سـنة 1963 كتابا حـول الموضوع اسمه (كلمة الإسلام) .

يتلخص الكتاب في التنظير لقيادة الفقهـاء المراجع كقيـادة شرعية وحيدة في (عصر الغيبة) ورفض الطريقة الحزبية القائمة على الديموقراطية الغربية والانتخــاب ، وذلك امتــدادا للصــراع التـــاريخي بين النظريـــتين الســـنية ، القائمة على الشـــورى ، والشيعية القائمة على النص والتعـيين. ومن هنا كـان تيارنا يـدعو الى المرجعية ، والمتمثلة في قيـــادة الســـيد محمد الشـــيرازي المرجع الناشيء والواعد والحركي النشط.

وكانت التهمة الكبرى التي نوجهها لأعضاء حزب الـدعوة هي انهم "خالصية" نسبة الى الشيخ مهـدي الخالصي ، ابن أحد قـادة ثـورة العشـرين الشـيخ محمد الخالصي ، الـذي نفي مع أبيه الى إيـران ، ولم تسـمح له السـلطات العراقية بـالعودة إلا بعد انتهـاء الحــرب العالمية الثانيــة. وكــان يحمل أفكــارا إســلامية وحدوية ونقدية لكثــير من ممارســات الشــيعة ، وخاصة تــركهم لصــلاة الجمعة ، أو إضافة الشهادة الثالثة (أشـهد ان عليا ولي اللـه) الى الأذان. وقد جوبه بمقاطعة ومحاربة من علمـــــــــــــاء النجف ، وبالخصوص من السيد الشيرازي في كربلاء الذي كان يكرس كل مـاهو تقليد شـيعي مثل الشـعائر الحسـينية والضـرب بالسـيوف والزناجيل ، وكان يرفض إقامة صلاة الجمعة ، بالرغم من أن أحد أساتذته وهو الشيخ محمد رضا الأصفهاني كان يقيمها في جــامع الصافي . ولأن أعضاء حـزب الـدعوة كـانوا يـدعون لإقامة صـلاة الجمعة فقد كــان الشــيرازي يعتــبرهم "خالصــية" (الأقــرب الى السنة) وفي هذه التهمة كفاية لإسقاطهم!

اعتقال السيد حسن الشيرازي

وبينما كـانت حركة الشـيرازي الثقافية الإسـلامية منطلقة في كـربلاء والعـراق ، وتكتسب المزيد من الأنصـار والأتبـاع ، في جو من الحرية النسبية ، في ظل النظـام الجديد (البعـثي) والضـعيف الـذي كـان يحـاول أن يسترضي رجـال الـدين ، حـدث تـوتر بين النظـام العـراقي ونظـام الشـاه في إيـران عـام 1969 ، وذلك عنـــدما ألغى الشـــاه اتفاقية شط العـــرب لعـــام 1936 فطلب الـرئيس العـراقي يـوم ذاك أحمد حسن البكر من المرجع الأعلى للشيعة في العالم السيد محسن الحكيم ، الـذي كـان على علاقة جيدة مع الشـاه، أن يتوسط بين البلـدين ويحل المشـكلة ، ولكن الحكيم رفض التــدخل في الأمــور السياســية الدوليــة، مما دفع

النظـام العـراقي الى شن حملة تهجـير ضد طلبة العلـوم الدينية في النجف ، وتصاعدت المواجهة بين الطـرفين خصوصا بعد عقد المؤتمر الشعبي الكبير في سـاحة حـرم الإمـام أمـير المؤمـنين، وإلقاء عدة خطابـات تحـدي ، وهنا ألقى النظـام العـراقي القبض على السيد حسن الشيرازي .

وكان السـيد الحكيم يشـعر بقـوة شـعبية كبـيرة في مواجهة النظام البعثي المكروه من قبل عامة الناس ، فذهب الحكيم في جولة سياسة جماهيرية الى بغـــداد والكاظمية ، ليضـــغط على النظـام ، وهنا بـادر النظـام الى إخـراج ضـابط عـراقي معـارض ومعتقل (هو رشـــيد مصـــلح)، في الإذاعة والتلفزيـــون ليتهم ابن الســيد محسن الحكيم (الســيد مهــدي) بأنه جاســوس لإيـــران وأمريكا. وكانت الحكومة كما سمعت يومها مستعدة للتراجع عن ذلك الاتهام إذا ما كـانت تحـدث أية اضـطرابات احتجاجية ، ولكن شيئا كبيرا لم يحدث في العراق ، مما جـرأ الحكومة على تسـفير السيد مهدي الى دبي وإجبار الحكيم على التراجع نحو مقــره في الكوفة (قرب النجف) والاعـتزال في الـدار. وعندئذ شـعر السـيد محمد الشيرازي بالخطر ، فاختفى هو أيضا في أحد بيوت كربلاء.

وعلمنا فيما بعد ان السيد حسن الشيرازي تعرض في معتقل (قصر النهاية) الى تعذيب شديد جدا لكي يعترف أمام التلفزيـــون بقائمة من رجال الدين بأنهم عملاء لإيران أو أميركا ، ولكنه صمد ولم يعترف أو لم ينهر أمـام التعـذيب. وقـامت حركة الشـيرازي بحملة إعلامية واتصالات دولية في خارج العـراق من اجل إطلاق سـراحه ، فتم نقله الى سـجن بعقوبة ، وبعد تسـعة أشـهر افـرج عنه.

تأسيس الحركة المرجعية أو منظمة العمل الإسلامي

كان التيار الشيرازي تيارا نشطا يعمل منذ بداية الخمسـينات ولكنه كان يرفض فكرة التحــزب والتنظيم الحــزبي ، ولكنه أدرك بعد الضربة التي وجهت له باعتقال السيد حسن الشيرازي حاجته الى التنظيم ، وهنا قرر أركان التيار مثل السـيد محمد الشـيرازي والسيد كاظم القزويـني والسـيد محمد تقي المدرسي البـدء في تنظيم الشـــباب ، وأوكلـــوا مهمة إدارة التنظيم الى الســـيد المدرسي بشرط التأكيد على التبعية للمرجعية الدينية ، وقد كنت منخرطا في التنظيم من حيث لا ادري بوجوده ، بل يمكن القــول أنى ولــدت ونشــأت في أحضــان الحركة المرجعية . وقد علمت

بالتنظيم رسـميا في نهاية عـام 1969 بعد إطلاق سـراح السـيد حسن الشـيرازي و وفـاة السـيد الحكيم ، وذلك عنـدما حوّلـني أسـتاذي السـيد مجتـبى الشـيرازي الى ابن أخيه السـيد هـادي المدرسي العائد لتــوه من لبنــان ، وأوكل اليه مهمة الإشــراف على قيامي مع مجموعة من الزملاء هم الشـيخ صـاحب الصـادق والشيخ كـاظم السـباعي والشـيخ محمد أمين الغفـوري ، بتـأليف كتب إسلامية . وقد بدأت بتأليف كتاب عن الأمام الحسين ، تحت عنوان: (**الحسين كفاح في سبيل العدل والحرية**) حـاولت فيه أن اقدم قراءة جديدة مغايرة لما كـان متعارفا بين الأوسـاط الدينية الشعبية من أن الحسين قتل مظلوما فقط ، وأن الله قدر له ان يقتل في كربلاء ، قراءة تقـوم على التركـيز على الجـوانب الثورية والكفاح المسلح والانتصـار لمبـادئ العـدل والحرية ، وقد سـاعدت الحركة أو أسـتاذي الجديد السـيد هـادي المدرسي على طبع الكتاب سريعا في بيروت عام 1970، وعنـدما رأيت نسـخة منه في كربلاء غمرني شعور هائل بالنجاح والإنجاز.

وبدأنا في التنظيم نتلقى دروسا سياسية ، ونتحدث عن الثورة الإســلامية القادمة ، وقد انعكست هــذه الــروح على هتافــات (مــوكب عــزاء الحي الحســيني) الــذي كنا نهيمن عليه فأخــذت عبارات كـ: (الثورة الحسينية) تتردد في أشـعاره وقصـائده ، بـدلا من الطابع التقليدي الحزين المجرد الـذي كـان يغلب على سـائر المواكب الحسينية.

وبالرغم من أننا كنا نحمل فكرا شيعيا إماميا قويا ، إلا إننا لم نجد مانعا من الانفتــاح على الفكر الإســلامي (الســني) العــام ، وبالخصـوص كتابـات قـادة الأخـوان المسـلمين مثل سـيد قطب ومحمد البهي ومحمد جلال كشك ومحمد قطب وغـيرهم ، الـتي كانت تشكل العمود الفقري لمكتبتنا.

وفي تلك الأثناء تعززت علاقتنا)برجال الدين المناضـلين في إيــران(، من أنصــار الإمــام الخميــني ، وذلك إثر زيــارة للســيد مصطفى الخميني ورجل كان يسمي نفسه (السيد سـميعي) الى مدرستنا (الحسنية) في إحدى المناسبات الدينية واستضـافتنا لهم ، ثم بـدءوا يعطوننا نسـخا من محاضـرات الإمـام الخميـني حـول ولاية الفقيه أو الحكومة الإســلامية ، الـــتي رأينا فيها تطابقا مع وجهة نظرنا حــول ولاية الفقيــه. وكــان لهــذه العلاقة دور في مســتقبل العلاقة بين حركتنا والثــورة الإيرانية القادمة بعد عشر سنوات.

ولم يكد السيد محسن الحكيم ، المرجع الأعلى ، يتـوفى في بغداد في نهاية سنة 1970 ، حتى سرت روح ثورية ضد النظـام

البعثي في جميع أنحاء العراق ، وقام الشيعة بعمل تشـييع ضـخم جدا للحكيم كتحد للحكومة ، ويمكن القول انهم حملوا جنازته من بغداد الى النجف على أكفهم ، حيث كانوا يشـيعونه الى مسـافة بعيدة خارج كل مدينة في الطريق ويستقبله أهالي المدن الأخرى من مســافة بعيــدة. وعنــدما حضر الــرئيس أحمد حسن البكر التشييع في بغداد هتف المشـيعون الغاضـبون :" سـيد مهـدي مو جاسـوس اسـمع يا الـريّس.. سـيد مهـدي مو جاسـوس اسـمع يا الخـاين" وذلك في إشـارة احتجـاج الى اتهـام ابن المرجع الأعلى للشيعة بالتجسس قبل عام . وخـرج أهـالي كـربلاء بـدورهم الى قرب المسيب يستقبلون الجنـازة ، وعنـدما وصـلت الجنـازة الينا وسمعت الناس يهتفون بتلك العبارة " سيد مهـدي مو جاسـوس اســمع يا الخــاين.. اســمع يا الــريّس" لم أتمالك نفسي من الانخراط مع المتظاهرين ، الذين هجموا على مخفر للشرطة في ناحية عون وهم يهتفون غاضبين :" أعلام الدولة.. نكسوها".

وكتبت في تلك السنة (1971) كتابي الثاني (**تجربتان في المقاومة**) الذي تحدثت فيه عن ثورة التنبـاك في إيـران وثـورة العشــرين في العــراق ، وذلك في محاولة لتعزيز خط الفكر المــرجعي في مقابل الفكر الحــزبي الــذي كـان يطرحه حــزب الدعوة الإسـلامية ، وكنا نخـوض معه ومع أحـزاب أخـرى صـراعا خفيا في كسب المتــدينين. وبما أنى كنت امتلك القــدرة على الكتابة فقد أخذ التنظيم يســـــتعين بي تحرير المجلة الداخلية (المجاهدون) وفي إصدار نشرات ثقافية للأعضاء الجدد.
وبعد ذلك بعام كتبت كتابي الثالث (**الإمام الصـادق معلم الإنسـان**) الـذي ركـزت فيه أيضا على دور القيـادة الإسـلامية والإمامة الإلهية لأهل البيت وقيادة الفقهـاء المراجع الـتي تشـكل امتــدادا لهــا. وكتبت بعــده كتــابي الرابع (**عشــرة – واحد = صــفر**) وهو يــدور حــول موضــوع الإمامة لأهل الــبيت، الــتي اعتبرتها جزءا مهما من الإسلام ، والذي إذا أسـقطنا منه موضـوع الإمامة فلن يبقى منه شيء ، واستعنت على فكـرتي هـذه بتأويل الآية التي يسوقها الشـيعة الامامية عـادة ، وهي (يا أيها الرسـول بلغ ما انــــزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رســـالته) ويشـرحون ذلك بتبليغ إمامة علي الى المسـلمين. وكـان التنظيم يقوم بطبع كتبي هذه فورا في بيروت ، وينشرها هنا وهناك ، وكنا في العراق نحصل على بعضها بطرق مختلفة ، ونستفيد منها في تعبئة الشباب فكريا باعتبارها تمثل فكر الخط.

بعد وفاة السيد محسن الحكيم ، المرجع الأعلى للشيعة، قام النظام البعثي بحملة تهجير واسعة للجالية الإيرانية الكبيرة في العراق ، وخاصة من مدن النجف وكربلاء والكاظمية والبصرة ، فهجر حوالي خمسين ألف مواطن كانوا قد ولدوا هم وآباؤهم في العراق ، ولكنهم لم يحصلوا على الجنسية العراقية ، وكانوا يشكلون قاعدة للمرجعية الدينية المعارضة، فأراد النظام بتهجيرهم تجفيف الينابيع أو البحيرة التي تسبح فيها المرجعية. ورغم ان الإيرانيين المقيمين في العراق كانوا منعزلين بصورة عامة عن الشأن السياسي العراقي ، وهذا ما يفسر جزئيا ابتعاد الحركة الدينية الشيعية عن التدخل المباشر في الشؤون السياسية العراقية ، إلا انهم كانوا يشكلون دعما أساسيا للمرجعية الدينية. وهكذا أثر تسفير الأعداد الهائلة من الناس في خلخلة البنية الاجتماعية للحركة الإسلامية الناشئة في العراق .

وهكذا وجد السيد محمد الشيرازي نفسه يتعرض لجملة من الضغوط في قلة من الأعوان ، فهاجر من العراق في نهاية عام 1971 ، وترك في محله السيد كاظم القزويني الذي كان يحمل الجنسية العراقية، ثم ذهب الى الكويت. وخرج معه السيد محمد تقي المدرسي وإخوانه ، فقرر التنظيم ترفيعي الى مستوى قيادة عام 1972 وشكلنا لجنة من خمسة أعضاء بقيادة المرحوم الحاج علي محمد. وما لبث التنظيم ان تعرض لمحاولة انشقاق قام بها قيادي آخر (أبو جاسم) يفترض انه كان يقود خطا ثانيا أكثر سرية ، وهذا ما أدى الى حدوث صراع داخلي مرير ترك آثاره النفسية على الكثير من الأخوة المؤمنين المخلصين.

وفي السنة التالية قام النظام البعثي بحملة اعتقالات ضد رموز الخط كالسيد كاظم القزويني والشيخ عبد الزهراء الكعبي والشيخ ضياء الزبيدي والشيخ عبد الحميد المهاجر وعدد من الشباب الطليعي ، وأودعهم في معتقل الفضيلية شرقي بغداد. وكان اسمي من بين الأشخاص المطلوبين ، ولكني استطعت أن اختفي عن أعين المخابرات . وفكرت في نفس الوقت بالسفر الى خارج العراق.

وكانت أول رحلة لي الى البحرين في أيلول 1973 ثم منها الى الكويت وسوريا ولبنان.

تفجر الثورة الإيرانية سنة 1979م

وكان العالم العربي يتابع الثورة يوما فيوما ، نظرا للسياسة الصهيونية التي كان يتبعها الشاه. اما نحن في العراق وفي الحركة الإسلامية ، والحركة المرجعية بالخصوص ، فقد كنا نتابعها منذ انتفاضة 15 خرداد 1963 وأقمنا علاقات وثيقة وعملية مع (جماعة رجال الدين المناضلين في إيران) التي تشكل خط الإمام الخميني ، والتي تحمل نفس الأيديولوجية التي نحملها وهي نظرية (ولاية الفقيه). ولهذا فقد كان انتصار الثورة الإسلامية في طهران انتصار لنا أيضا .

ووجدت نفسي بعد خمسة عشر يوما من انتصار الثورة استقل الطائرة من الكويت الى طهران في وفد لتهنئة الإمام الخميني بالنصر.

افتتاح الإذاعة العربية

واتصلت مع مجموعة من الأصدقاء بالصديق القديم الشيخ (محمد المنتظري) الذي أصبح عضوا في مجلس قيادة الثورة ، وطلبنا منه ان يسمح لنا بافتتاح القسم العربي من الإذاعة الإيرانية الذي اغلق عند الانتصار. وهكذا ذهبنا الى مبنى الإذاعة والتلفزيون وأخذنا من مديرها الجديد (السيد صادق قطب زادة) رسالة الى إذاعة الأهواز. وذهبت فورا مع أحد الأصدقاء وهو السيد محسن القزويني (الذي كان يعرف بالباقري). ولم نستطع فتح إذاعة الأهواز ، فذهبنا الى عبادان، فجمعت الموظفين وطلبت منهم مباشرة البث هذا اليوم لمدة ساعتين في المساء.

كان لدينا تحليل للنظام العراقي أنه (**نمر من ورق**) وأنه يقوم على الخداع بوسائل الإعلام الهائلة التي يملكها ، فإذا عرينا النظام بواسطة الإذاعة ، فان الجماهير العراقية ستبادر الى الثورة. وهكذا بدأت أكتب كل يوم تحليلا سياسيا بعد نشرة الأخبار ، أسلط فيه الضوء على النظام العراقي.

وبعد ثلاثة أِشهر انتقل القسم العربي الى طهران ، وبدأنا نبث من هناك والتحق بنا عدد من الاخوة العراقيين الذي أخذوا يعدون البرامج والمقالات والمسرحيات الساخرة.

وعندما حل شهر محرم ، عملنا برنامجا خاصا ثوريا باسم (**عراق اليوم يبحث عن حسين**) وهو عنوان كراس أصدرته في الكويت قبل سنوات ، وما أن بدأ البث ، حتى بدأت الاتصالات تنهمر على مدير الإذاعة العام السيد قطب زادة ،

الذي أصدر أمرا فوريا بإيقاف البرنامج. ولكنا لم نستسلم، فبـدأنا اتصالاتنا الخاصة مع أصـدقائنا في مختلف الـدوائر ، وعـاد قطب زادة فاتصل بنا بعد ساعة وقال خففوا البرنامج قليلا ، وتواصــلت الاتصالات معه ، فعاد ليقول بثوا ما تشاءون ولكن ارفعوا الضغط عني. هـذا رغم أنا كنا مجـرد مجموعة متطـوعين عراقـيين نعمل مجانا وبصورة غير رسمية في الإذاعة والتلفزيون.

وذات مرة جاء سفير إيران في بغداد (السيد دعـائي) وطلب منا تخفيف حدة اللهجة ضد العـراق ، كما نقل لنا أحد المـوظفين بـــأن وزير الثقافة الإيـــراني يعـــترض على برامجنا ، وعلمت من خلال أحد الأشخاص (السيد مرتضى القزويـني) الـذي طلبت منه إجـراء مقابلة ضد العـراق ، أن الإمـام الخميـني يـرفض أيضا تلك الحملة الإعلامية ، فقد سأله شخصيا ونصحه بعدم إجراء المقابلة . ولكننا في ظل الفوضى الإدارية في بداية الثـورة لم نكن نبـالي أو نستمع الى أحد ، وكنا نحاول تنفيذ مخططنا في إثارة الشـعب العــراقي ودفعه نحو الثــورة ، تحت شــعار: (اليــوم إيــران وغــدا العــراق). وقد انضم الى حملتنا الســيد محمد الشــيرازي الــذي هـاجر من الكـويت الى إيـران وأخذ يصـدر البيانـات المتتالية ضد العراق.

وكان من الواضح أن الإذاعة كـانت تشـكل ضـغطا كبـيرا على النظام العراقي المرتبك ، الذي كان يحاول أن يرد على ما نقــول كل يوم.

ولــذلك اعتــبر بعض المحللين الإذاعة العربية ســببا من أســباب اندلاع الحرب بين العراق وإيران.

ومع استقطاب الإذاعة العربية للمستمعين في العراق وأنحـاء العالم العربي ، أصبحت محل اهتمام حزب الدعوة الإسلامية في العراق ، الذي بدا أعضاؤه يهاجرون الى إيـران ، وحـدث نـوع من المنافسة والاحتكـاك بين كـوادر منظمة العمل والحــزب ، الــذي كان يمثله الشيخ حسين الكوراني. مما دفعني الى الانسحاب من الإذاعة بعد مضي حــوالي ســنة من المشــاركة فيها وقبل بــدء الحــرب العراقية الإيرانيــة. وفي تلك الأيـام قـام شـاب عـراقي يدعى (السيد حسين الهاشمي) كان يعمل في صحيفة (جمهـوري إســلامي) بــإجراء مقابلة تلفونية مع الشــهيد الصــدر ، وجــاء بالشريط وبثه بالتنسيق مع مدير القسم الدولي (ســليماني) . ثم أصدر الإمام الخميني يوما بيانا مفتوحا موجها الى السـيد الصـدر، يطلب منه البقاء في العراق ، بعد أنباء سـمعها عن نيته بمغـادرة العــراق الى إيــران. وقد نشر هــذا البيــان في الإذاعة الفارســية وترجم الى العربية ضـمن القنـوات الرسـمية. وقد شـكل البيـان

المفتـوح صـدمة للشـهيد الصـدر ولكل من سـمعه ، إذ أنه كـان يحمل معنى توكيل الإمام الخميني للصدر و إعداده لقيادة الثـورة في العراق ، مما أخاف النظام العراقي كثـيرا فبـادر الى اعتقاله وإعدامه.

المعارضة العراقية في إيران

أدركنا منذ الوهلة الأولى لـذهابنا الى إيـران ، أنها بلد واسع متعدد الاتجاهات والخطوط ، ولاحظنا الموقف الرسمي الإيـراني ، في ظل حكومة السـيد مهـدي بازركـان ، أنه يميل الى إقامة علاقـات طبيعية مع العـراق ، وانه يلـتزم باتفاقية 1975 الموقعة في الجزائر بين البلــدين. ولــذا فقد ذهب وزير الخارجية السـيد إبراهيم يزدي الى السفارة العراقية في 17 تموز ليهنئهم بـذكرى "الثورة". وكنا كمعارضة عراقية نريد من إيران ان تكون سندا لنا ومنطلقا للثـورة ضد العـراق، فكـان علينا أولاً تعبئة الـرأي العـام الإيراني الذي كان ينظر بإيجابية الى نظام البعث ، باعتبـاره البلد الوحيد الذي آوى قائد الثـورة الإمـام الخميـني مـدة خمسة عشر عاما ، و أعطى الثـورة نافـذة إذاعية باللغة الفارسـية ، وان كـان قد ضغط على الإمـام في الشـهور الأخـيرة وقيد حريته مما دفعه الى مغادرة العراق. ولتحقيق هذا الهدف بدأنا نكتب في الصـحف الإيرانية مقــالات عن الديكتاتورية في العــراق ، وأصــدرنا مجلة (الشهيد) وأخرجنا مظاهرة في ذكرى 17 تمـوز ، أمـام السـفارة العراقية في طهــران. مما دفع الــرئيس صــدام حســين الى الشكوى من وزير الخارجية الإيراني إبـراهيم يـزدي الـذي التقـاه في مـؤتمر عـدم الانحيـاز في هافانا ، والطلب منه إعـدام رئيس تحرير مجلة الشهيد الـتي نشـرت رسـما كاريكاتوريا له عند توليه منصــبه الجديد ، ولكن يــزدي اعتــذر بــأن المجلة غــير خاضــعة للحكومة في ظل الأجواء الديموقراطية الجديدة في إيران.

وبالتنسيق مع أصدقائنا في الحرس الثوري ، بدأنا نقيم قواعد عسـكرية على الحـدود ، لتسـهيل عبـور عناصـرنا من والى داخل العراق. ولكن أحد الأخوة (الشهيد طـالب العليلي) كـان يلح ببـدء العمل العسكري في داخل العراق ، ولم نكن قد اتخذنا قرارا بعد ، إذ لم نكن قد انتهينا من دراسة المشــروع العســكري للتغيــير. ولكنه ذهب الى العــراق من دون استشــارتنا ولا إخبارنا ، وقــام بعملية الهجـوم على كـوادر حـزب البعث في كـربلاء ليلة العاشر من محـرم. وأعقبه قيـام أشـخاص آخـرين من الخط العسـكري بمحاولة اغتيال طارق عزيز في الجامعة المستنصرية ، ثم هجـوم

(خالد) على موكب تشييع الضحايا في بغداد ، بقرار من قيادة العمل في العراق. ومع ذلك فقد تبنينا العمليتين في طهران وأصدرنا بيانات باسم (منظمة العمل الإسلامي في العراق).

وقد قرأت في التقارير الواردة من أصدقائنا في العراق : أن (خالدا) كان يتميز بشجاعة فائقة ويجيد تمثيل دور رجال الأمن ويندس فيما بينهم ، وأنه ذات مرة ذهب الى قاعة كان يفترض ان يحضر فيها طه الجزراوي أو غيره ، وراح يعطي أوامره لرجال الأمن حتى حسبوه واحدا منهم ، ثم وقف وراء المنصة لكي ينفذ عملية اغتيال للوزير ، ولكن هذا لم يأت ذلك اليوم. وكان الأخوة في داخل العراق يحسبوه بطلا مقداما ، ولكني كنت أشك بكونه شرطيا سريا مخادعا متسللا الى التنظيم ، وقد خدم النظام أكبر خدمة عندما هاجم المشيعين باسم منظمة العمل الإسلامي أو إيران.

كل ذلك دفع النظام العراقي الى اتخاذ قرار الحرب والاستعداد لها ، بشن حملة تهجير للعراقيين من أصل إيراني ، والذين يشك بولائهم للثورة الإيرانية. فهجر حوالي خمسين ألفا من مختلف المحافظات العراقية . وهنا دعا السيد محمد الشيرازي في بيان له الى تعبئة الشباب المهجرين في جيش للهجوم على العراق ، وتشكل بناء على ذلك (الجيش الثوري الإسلامي لتحرير العراق) مما دفع النظام العراقي الى احتجاز الشباب وتهجير الشيوخ والنساء والأطفال.

وقد تشكل الجيش الثوري العراقي ، بالطبع بالتنسيق مع الحرس الثوري الإيراني ، وأصبحت عضوا في قيادته السياسية ، المشكلة من مختلف الأحزاب العراقية المعارضة المتواجدة في إيران، ممثلا عن منظمة العمل الإسلامي. وكان يتولى الإشراف على الجيش الثوري السيد مهدي الهاشمي ، مسؤول قسم حركات التحرر في الحرس الثوري ، مع الشيخ محمد المنتظري.

و شن النظام العراقي الحرب على إيران في 22 أيلول 1980

ورأينا في الحرب فرصة جديدة لإسقاط النظام العراقي ، الذي لم نستطع إسقاطه عبر الإذاعة والإعلام ، وتوقعنا ان ينتفض الجيش العراقي ضد صدام الذي زجه في حرب لا يريدها ضد إخوانه في إيران الإسلامية الشيعية الثورية. بحيث بدأنا نحزم حقائبنا استعدادا للعودة الى العراق.

ومع اشتداد الحرب وتحقيق الإيرانيين لانتصارات على الجبهة ، وإصرار الإمام الخميني على الانتقام من صدام بإسقاطه ، ورفض كل الوساطات الدولية ، تزايدت آمال المعارضة العراقية

بالانتصـــار، وكثفت تعاونها مع الجيش الإيـــراني ، وذهب البعض ليقاتل في صفوف الإيرانيين ضد الجيش العراقي ، باعتباره قتـالا دفاعيا عن "الإسلام والثورة" ضد النظام "البعثي الكافر".

وكتبت في تلك الفترة كتابي (**تجربة الثورة الإسلامية في العـراق**) الـذي حـاولت فيه أن انتقد الحركة الإسـلامية العراقية والمرجعية الدينية (وانتقدت بالخصوص تجربة السـيد الشـيرازي السلمية) وأن أتعرف على نقاط القوة والضعف فيها ، أملا بـدعم خط المرجعية وولاية الفقيه في العراق في المستقبل.

منظمة العمل الإسلامي ، في إيران

وفي الوقت الذي كانت المنظمة محسوبة على السيد محمد الشـــيرازي ، كـــان هـــذا بعيـــدا عنها تماما ، ولا تربطه بأعضـــاء المنظمة الا الصـداقة والتوجيه العـام ، حيث لم تكن اسـتراتيجية المنظمة السياســـية والعســـكرية تســـتوحي خطها من فكر الشيرازي ، الذي كان يرفض العمليات العسـكرية داخل العـراق، وخاصة التفجيرات الانتحارية ، وكذلك العلاقة الشديدة مع إيران ، ولـذلك فقد قـرر السـيد الشـيرازي تأسـيس حركة جديـدة باسم (حركة الجمـاهير المسـلمة) وأخذ يـدعو الى الشـورى وانتخـاب قـــادة المنظمـــة، ولكن الخلاف بينه وبين ابن أخته المدرسي لم يصل الى حالة التفجــر، بحيث لم يشــعر به الأفــراد العــاديون ، وظلوا يحسبون أنفسهم تابعين للشــيرازي ، وهو لا يملك من أمر المنظمة شيئا.

العودة للحوزة العلمية
والدعوة للتشيع

في سنة 1982

كانت الحرب العراقية الإيرانية بدأت تأخذ طابعا عبثيا ودمويا رهيبا ، وأخذ السيد الشيرازي يدعو الى إيقافها ويقول: بأنها تسير في طريق مسدود ، ويدعو أعضاء المنظمة للخروج من إيران.

وفي هـذه الفـترة فضـلت الاسـتقالة من منظمة العمل ، و التوجه نحو إكمـال دراسـاتي الحوزوية الـتي أهملتها منذ خـرجت من العراق.

وفي عام 1985 دعـاني السـيد المدرسي الى التـدريس في (حـوزة الإمـام القـائم) الـتي كـان يشـرف عليها وتضم طلبة من السعودية والخليج وبعض العراقيين والأفغان وغيرهم ، وتقع على مشارف طهران الشرقية في منطقة تسمى (مامازنـد) . وكـانت أشبه بمدرسة كوادر حركية منها بحوزة علمية ، حيث كان الطلبة يجمعـون بين الدراسة الفقهية والإسـلامية وبين العمل التنظيمي والقيام بمهمات حركية مختلفة.

وبعد سقوط نظام جعفر النميري في السودان ، قررنا إنشاء فرع للحركة في السودان ، وقمت بالسفر عبر سـوريا والقـاهرة الى الخرطوم . وبقيت حـوالي أربعين يوما قمت خلالها بالاتصـال بمجموعة طلبة جامعيين وشيعت بعضـهم ، ثم دعـاني هـؤلاء الى الحـوار مع بعض أصـدقائهم السـلفيين (الوهـابيين) فـذهبت الى دارهم وجلست معهم الى آخر الليل. وفي الصـباح سـأل أحـدهم صاحبه: كيف أصبحت؟ قال : أصبحت شيعيا.

وبعد ان كـونت نـواة شـيعية قمنا بجلب بعض الأخـوة الى (الحـوزة القائميـة) ليشـكلوا بداية حركة شـيعية في السـودان . وبالطبع لم تكن للحكومة الإيرانية أية علاقة بالموضوع.

دراسة نظرية (ولاية الفقيه)

كانت تجربة الحكم في الجمهورية الإسلامية الإيرانية ، تشكل بالنسـبة لنا نحن الشـيعة العراقـيين نموذجا صـالحا للتطـبيق في العـراق ، وكنا في منظمة العمل الإسـلامي أقـرب ما نكـون الى نظرية (ولاية الفقيه) الـتي قـام على أساسـها النظـام الإيـراني ، حيث كنا نــدعو الى نفس النظرية في العـراق. ولكن النظرية لم تكن واضحة لـدى الجميع بالتفصـيل ومنذ البداية ، ولـذلك قـررت منذ الســـنوات الأولى لوصــــولي الى طهــــران دراسة التجربة الإيرانية بدقــة. وقد أخــذت على الدســتور الإيــراني انه لا يعطي الفقيه صلاحية كاملة في الحكم ، ويشــرك معه رئيس الجمهورية ، وتمنيت لو أن الخبراء الذين وضـعوا الدسـتور ، يعطـون الفقيه ولاية كاملة بمنحه حق تشكيل مجلس خـبراء ومجلس وزراء ، ولا يدســون في الدســتور "نظريــات ديموقراطية غربية ليبراليــة". وكنت اقف نظريا الى جـانب الحـزب الجمهـوري الإسـلامي في صــراعه مع رئيس الــوزراء مهــدي بازركــان و رئيس الجمهورية الأول بني صدر.

وفي سنة 1988 حدثت أزمة في إيران بين مجلس الشورى و وزارة العمل ، وبين مجلس صيانة الدستور ، حول قانون العمل ،

الذي قدمته الحكومة ، وأقره مجلس الشورى ثمـان مـرات خلال ثمان سنوات ، وعارضه مجلس صيانة الدسـتور ، الـذي وجد فيه مخالفة لبعض القـــوانين الإســـلامية. وهنا اســـتعان وزير العمل بالإمـــام الخميـــني وطلب منه دعم القـــانون ، خوفا من تحـــول العمـال الى الشـيوعية والمعارضة اليسـارية ، فأجـاز له الإمـام العمل بالقـــانون قبل ان يأخذ صـــيغته القانونية النهائيـــة. وهنا اعـترض رئيس الجمهورية السـيد علي الخـامنئي ، وأعضـاء في مجلس صيانة الدستور ، فألقى الإمـام الخميـني خطابا مهما جـدا وطرح نظرية (ولاية الفقيه المطلقة) وقال : إن ولايته شـعبة من ولاية الله والرسـول والأئمة المعصـومين ، وإن له الحق بتجـاوز القـانون ، وبمخالفة أية اتفاقية شـرعية يعقـدها مع الشـعب ، إذا رأى بعد ذلك بأنها مخالفة لمصالح البلاد أو مخالفة للإسلام.

وقد استوقفني هذا الخلاف الدستوري ، وأحيا لدي رغبة قديمة في دراسة التجربة الإيرانيـــة، فقـــررت القيـــام بدراسة اجتهادية دقيقة لموضـوع (ولاية الفقيـه) من مصـادرها الأصـولية والفقهية القديمة. واشتغلت سنة كاملة على هذا الموضوع الذي سـاعدني السيد صادق الشـيرازي على توفـير بعض مصـادره المجهولـة. و درَّست الموضوع في مائة درس في حـوزة القـائم. وحصـلت لي بعض الملاحظـات البسـيطة الـتي اختلفت فيها عن رأي الإمـام الخميني.

وقبل أن أكتب الموضوع بصورته النهائية ، فكرت بعمل مقدمة تاريخية له، تستعرض آراء ومواقف علماء الشيعة خلال ألف عـام ، زمن (الغيبة الكبرى) من موضـوع نظرية (ولاية الفقيـه). وأثنـاء بحث موضــوع المقدمة ، الـذي كنت اشـتغل فيه سـنة 1990 ، ذهبت الى زيـارة الامـام الرضا في مشـهد خراسـان ، وهنـاك تعـرفت على مكتبة خاصة تابعة لمركز دراسـات يـديره السـيد جـواد الشهرسـتاني ، ووجـدت فيه حـوالي مائة موسـوعة فقهية شيعية تغطي فترة (الغيبة الكبرى) أي ألف عـام من تـاريخ الفقه الجعفري الامـامي الاثـني عشـري ، وانكببت عليها أتـابع ما يتعلق منها بمواضـيع الثـورة والسياسة والأمر بـالمعروف والنهي عن المنكر والخمس والزكاة والأنفـال وصـلاة الجمعة والحـدود ، وما الى ذلك من المواضـيع الـتي تتعلق بالحكومـة. ولشد ما كـانت دهشتي عنـدما وجـدت فيها نظريـتين متمـيزتين ، الأولى : نظرية التقية والانتظار للامام المهدي المنتظر الغـائب ، والثـاني: نظرية ولاية الفقيـه. ووجـدت أن هـذه النظرية تطـورت منذ حـوالي المـائتي عـام ، على أسـاس نظرية (نيابة الفقهـاء عن الامـام المهـدي) الـتي ولـدت كجـنين صـغير في ظل (غيبة الامـام) تم

تطورت وتطورت الى أن أصبحت تشمل قضايا سياسية قريبة من الدولة، كإعطاء الفقهاء الإجازة للملوك للحكم نيابة عنهم ، باعتبارهم مصدر الشرعية الدستورية في عصر الغيبة ، لأنهم نواب الامام المهدي . وأول من طبق هذه النظرية كان المحقق الشيخ علي عبد العالي الكركي ، عندما منح الشاه الصفوي (طهماسب) الإجازة للحكم باسمه. أما قبل ذلك التاريخ فقد كانت تخيم على الشيعة نظرية التقية والانتظار ، التي كانت تحرم إقامة الدولة في عصر الغيبة ، الا عند ظهور الامام المهدي ، وذلك تبعا لنظرية الإمامة الإلهية التي كانت تشترط العصمة والنص والسلالة العلوية الحسينية في الامام. ومن هنا وجدت تناقضا كبيرا بين النظريتين ، وأن النظرية الثانية (ولاية الفقيه) تعتبر انقلابا على نظرية التقية والانتظار. خلافا لما كنت اعتقد حتى ذلك الوقت من أن نظرية ولاية الفقيه (أو المرجعية الدينية) هي امتداد لنظرية الإمامة ، وقد أوصى بها الامام المهدي لدى غيبته كنظام سياسي للشيعة في ظل (الغيبة الكبرى). وقلت إذا كان ذلك صحيحا فلماذا لم يعرفه جميع علماء الشيعة الأقدمون الذين كانوا يلتزمون بنظرية التقية والانتظار؟

ولإكمال الصورة كان علي أن أبحث فترة (الغيبة الصغرى) التي امتدت حوالي سبعين عاما بعد وفاة الامام الحسن العسكري سنة 260 هـ ، والتي يقال إن ولده (محمد المهدي المنتظر) كان يتصل فيها بمجموعة وكلاء أو نواب خاصين ، الى أن انقطعت النيابة الخاصة بوفاة النائب الرابع محمد بن علي الصيمري سنة 329 هـ. وذلك لأرى ما هي النظرية السياسية التي كان يلتزم بها أولئك "النواب الخاصون"؟ وهذا ما جرني الى بحث موضوع فترة الغيبة الصغرى. وهنا بدأت أتعرف لأول مرة على مسألة وجود (الامام محمد بن الحسن العسكري) وما كان يلفها من غموض وتساؤلات.

وبالرغم من كوني نشأت في بيئة دينية شيعية ودرست في الحوزة حتى أكملت (السطوح) وسنوات من درس (الخارج) أي الدراسات العليا ، وانخرطت في حركة سياسية تعمل من أجل تطبيق نظرية سياسية تقوم على فكرة وجود (الامام المهدي) ، وكتبت حوالي خمسة عشر كتابا حول أئمة أهل البيت والفكر الشيعي الامامي ، وقمت بالدعوة لهذا الفكر حتى أسست حركة شيعية في السودان.. الا أنى لم أكن قد سمعت بوجود عدة نظريات شيعية أو اختلاف داخلي حول وجود أو عدم وجود ذلك (الامام الثاني عشر) الذي كنت اعتبره حقيقة لا يعتريها الشك ، وبديهة عشت عليها وانتظر قدومها في أية لحظة.

أتذكر هنا أن الخطيب السيد محمد كاظم القزويني كان يبشر سنة 1398 هـ وهو في كربلاء بأن موعد ظهور الامام المهدي قد اقترب وانه سيحل بعد 12 عاما فقط ، ويلوح بيديه هكذا. ولـذلك فقد استقبلت نبأ قيام (المهدي المنتظر) في مكة سنة 1400 هــ بالترحاب ، وتوقعت ان يكون هو ذلك الامام ، الذي تبين فيما بعد انه (محمد بن عبد الله القحطاني) رفيق (جهيمان العتيبي).

وكانت صدمتي الكبرى عنـدما وجـدت مشـايخ الفرقة الاثـني عشرية كالشيخ المفيد والسـيد المرتضى والنعمـاني والطوسي ، يصرحون ويلوحون بعـدم وجـود دليل علمي تـاريخي لـديهم على وجـود وولادة (ابن) للامـام الحسن العسـكري ، وانهم مضـطرون لافـتراض وجــود ولد له لكي ينقـذوا نظرية (الإمامة الإلهية) من الانهيار. ويقولون: نحن بالخيار بين الإيمان بذلك الولد المفترض ، وبين رفض نظرية الإمامة ، فــإذا كــانت نظرية الإمامة صــحيحة وقوية وثابتة ، علينا أن نسـلم بوجـود ولد في السر ، حـتى لو لم تكن توجد عليه أدلة شــــرعية كافية ، وإذا لم نقتنع بوجــــود ذلك الولد ، فعلينا الـتراجع عن نظرية الإمامـة، وهـذا أمر غـير ممكن، فـإذن علينا التسـليم والقبـول بوجـود ولد في السر سـوف يظهر في المستقبل ، وأنه المهدي المنتظر.

وكان إيماني حتى ذلك التاريخ بنظرية (الإمامة الإلهية) قويا لا يـــــتزعزع ولا يقبل الشك ، وقد اســـــتطعت ان أشـــــيّع بعض (الوهــابيين) في ليلة واحــدة في الســودان ، وان أؤسس حركة شيعية في السودان واسـتقدم بعض الطلبة للدراسة في الحـوزة لــدينا في طهـران. وكنت أعمل في تلك الأيــام على وضع خطة لتشييع الشعب الكويتي ، والعالم الإسلامي بصورة عامــة. الا أني وجــدت نفسي أمـــام تحد داخلي رهيب ، فاما أن تكـــون نظرية الإمامة صـحيحة أو لا تكــون. وبما أني لم اقتنع بوجــود (الامــام الثاني عشر) فقد كـان لزاما عليّ أن أبحث موضـوع الإمامة لكي أرى مدى صحته. وتركت موضـوع الامـام المهـدي جانبا ، ورحت أقرأ ما يتعلق بموضوع الإمامة من مصـادر كتب الشـيعة القديمة الـــتي لم أقرأها من قبل ، ولا توجد ضـــمن البرنـــامج الدراسي للحوزة ، ما عـدا كـراس صـغير للشـيخ نصـير الـدين الطبرسي ، يعـرف باسم (البـاب الحـادي عشـر) فقـرأت (الشـافي) للسـيد المرتضى ، و(تلخيص الشـافي) للشـيخ الطوسي ، وكتب الشـيخ المفيد المتعـددة وكـذلك ما تـوفر من كتب حـول الموضـوع في مكتبات مدينة قم وطهران ومشهد.

وكانت مفاجـأتي الثانية أو الثالثة عنـدما اكتشـفت أن نظرية (الإمامة الإلهيــة) الطافية على ســطح التــاريخ والفكر السياسي

الشيعي ما هي الا من صنع (المتكلمين) ولا علاقة لها بأهل البيت . وذلك لأنها تتعـارض مع أقـوالهم وسـيرتهم ، ولا يمكن تفسـيرها الا تحت ستار (التقية) التي كان يقول بها (الباطنيون) الذين كانوا ينسـبون الى أئمة أهل الـبيت ما يشـاءون من نظريـات وأقـوال تتنـافى مع مـواقفهم الرسـمية ، بحجة الخـوف من الحكـام ومن إبداء رأيهم بصراحة.

ووجـدت أن نظرية أهل الـبيت السياسـية ترتكز على مبـدأ (الشــورى) في حين أن (الإمامة الإلهيــة) تقــوم على تــأويلات تعسفية للقرآن الكريم وعلى أحاديث مشـكوك بصـحتها ، وأنها لا تمتلك أي سـند تـاريخي ، حيث كـان أئمة أهل الـبيت يرفضـون النص على أحد من أبنائهم أو الوصـية اليه بالإمامة ، ولـذلك قـال (المتكلمون الباطنيون) بأن الإمامة تقوم على علم الأئمة بـالغيب وعمل المعاجز ، وهـذا ما يصـعب إثباته في التـاريخ الشـيعي وما كــان يرفضه أهل الــبيت أنفســهم ، فضلا عن العقل والشــرع. إضافة الى تعرض نظرية الإمامة التي كان يقول بها فريق صـغير باطني من الشيعة في القرنين الثـاني والثـالث الهجـريين ، الى امتحانات عسيرة تتعلق بمسـألة عمر الأئمة الصـغير مثل الامـام الجـواد والهـادي والإمـام الثـاني عشر المفـترض ، حيث كـان كل واحد منهم لا يتجاوز السابعة.

وأدركت عندها أن نظرية الإمامة المفتعلة والمنسوبة الى أهل الــبيت كـذبا و زورا ، وصـلت الى طريق مسـدود بوفـاة الامــام الحسن العســـــكري دون خلف من بعـــــده ، وأن بعض أعوانه الانتهازيين ادعـوا وجـود ولد له في السر وخلافا لقـانون الأحـوال الشخصـــية الإســلامي ، من أجل إنقـــاذ نظـــريتهم الباطلة من الأســاس. وهكـذا أسسـوا الفرقة (الاثـني عشـرية) في غيبة من وجود أحد من أئمة أهل البيت .

نظـرت الى نتـائج بحـثي من زاويـتين ، الأولى: هي زوال الخلافات التاريخية العقيمة بين الشيعة والسنة عن "أحقيـة" أهل البيت بالخلافة بالنص من الله تعالى و "اغتصـاب" الآخـرين لهـا. وإعادة توحيد الأمة الإســلامية ، والثانية : هي الموقف من نظرية ولاية الفقيه والمرجعية الدينية والنيابة العامة للفقهـــاء في عصر الغيبة ، والعــودة الى الشــورى وحق الأمة في اختيــار الحكــام وتحديد صلاحياتهم . وكان التوصل الى هاذين الموضوعين يشـكل نقطة تحول جذرية في حياتي ومسيرتي وعلاقاتي. وبما أنى كنت أعيش في إيـــــران في ظل نظـــــام ولاية الفقيه ، فلم يكن من السـهل البـوح بهـذه النتـائج الا لـدوائر ضـيقة جـدا من الأصـدقاء والــزملاء والأســاتذة. أول من حدثته عن الموضع كــان والــدي

العزيز (رحمه الله) الذي تجاوب معي تماما وكأنه ينتظر ما أقـول ، أما والدتي فقد امتعضت كثيرا وحزنت وتأسـفت على أن يكـون ثمـرة حياتها تـأتي بهـذه النتيجة وهي إنكـار نظرية الإمامة لأهل الـبيت ، ونفي وجـود الامـام الثـاني عشـر. ولكنها بعد فـترة وبعد حـوار طويل معي ومع والــدي ، قبلت بــالفكرة بعد أن تفهمتها جيـدا. لقد كـانت امـرأة مؤمنة جـدا ومحبة لأهل الـبيت ومثقفة بالثقافة التقليدية ، وقد ربتــني هي على الإيمــان بوجــود الامــام المهدي وانتظـاره ، ولكنها لم تكن انسـانة متعصـبة أو متحجـرة ، وأصبح والديّ كلاهما من أشد المدافعين عن أفكاري والمبشـرين بها بين الأهل والأقـارب والأصـدقاء . وتحملا من أجل ذلك كثـيرا من المعاناة والمقاطعة والأذى .

أبــرز من ذهبت اليه للحــوار معه ، كــان مؤسس الحركة المرجعية ، المرجع السيد محمد الشيرازي ، وكان قد سمع بعض الشـيء عـني ، فطـرح أثنـاء زيارته في مكتبه في قم ، موضـوع المصـير البـائس الـذي يتعـرض له من ينكر حقـوق أهل الـبيت . وضـرب لـذلك مثلا بالشـيخ المنتظـري الـذي أنكر حق السـيدة فاطمة الزهراء في (فدك) فأصابه ما أصابه من العـزل والحصـار والضـغط ، وفهمت ما كـان يقصد ، فقلت له : إن موضـوع فـدك بسـيط جـدا وهامشي ولا يسـتحق التوقف كثـيرا ، وهنـاك قضـايا أساسية تمس جوهر العقيدة الشيعية مثل موضـوع وجـود الامـام الثـــاني عشر ، فقـــال: إذا تريد أن تعمل في الســـاحة عليك أن تتجنب الخوض في هكذا مواضيع . وقلت له: ليس مهما العمل أو عــــدم العمل ، المهم التحقق من عقيــــدتنا ومعرفة الحق من الباطل . وتجرأت فسـألته فيما إذا كـان قد بحث موضـوع الامـام المهدي بصورة مفصلة اجتهادية؟ فاعترف بصراحة أذهلتني قائلا: لا . وكـــان من المفـــترض به كمجتهد ومرجع قبل أن يبحث في القضــايا الفقهية الفرعية أن يبحث ويجتهد في أســاس العقيــدة الشـيعية الامامية الاثـني عشـرية الـتي يبـني عليها بقية الأمـور ، وسألته سـؤالا آخـر: هل قـرأت حـول الموضـوع؟ قـال: نعم. ولم تكن أمامنا فرصة للحـــوار ، فقلت لـــه: إذن ســـوف أبعث لك بدراستي لكي تلقي عليها نظرة وتعطيني رأيك حول الموضوع.

الشخص الثالث المهم الذي قررت مفاتحته في طهران، كان هو أســتاذي الســيد محمد تقي المدرســي، زعيم منظمة العمل الإسلامي ومؤسس الحوزة القائمية ، والكاتب والبــاحث والمفكر الإسلامي الكبـير، ولكنه كـان يومها في نهاية عـام 1990 منهمكا في متابعة ذيول اجتياح صدام للكويت ، واستطعت أن آخذ ساعة واحدة من وقته ، وأحدثه بالتفصيل عن خلاصة دراستي ، وطلبت

منه أن يشرح لي كيف يؤمن بوجـود الامـام المهـدي ، وأن يقـدم لي أية أدلة يملكها ولم اطلع عليها حول الموضوع. فقال لي: بان هذا الموضـوع من أمـور الغيب. قلت لـه: نحن المسـلمين نـؤمن بالغيب كالملائكة والجن والجنة والنار لأنا نؤمن بالقرآن الكـريم ، ولا يمكن أن نقبل بـأي أمر آخر لا يوجد في القـرآن ، ولم يثبت من خلال السـنة ولا من أحـاديث أهل الـبيت. وإذا كـان مشـايخ الشـيعة يقولـون إن الإيمـان بوجـود ولد للامـام العسـكري هو افتراض فلسفي لا دليل عليه ، فكيف يمكن اعتبار ذلك من أمـور الغيب؟

قـال لي وهو ينظر الى سـاعته : أرجو ان تـرجئ الكتابة حـول الموضوع حـتى تبـذل مزيـدا من الـوقت في البحث والتمحيص ، ولا تسـتعجل ، ثم اكتب بحثك وقدمه لي مكتوبا حـتى أسـتطيع مناقشته . قلت له: عظيم.. وهذا ما أدركه أنا جيدا فان موضـوعا مهما وخطيرا كموضوع وجود الامام الثاني عشر ليس أمرا سـهلا يمكن التلاعب به ، وأعدك بأني لن انشره الا بعد استكمال بحثي لسنة أخرى.

وهكذا وعدت عددا صغيرا آخر من أصـدقائي واخـواني . ولم أنس المحافظة على السـرية المطلقة وحصر البحث حـول الموضوع في أضيق دائرة من الاخوان المؤتمنين.

أكملت كتابة المسودة الأولى من الكتاب في نهاية عام 1992 وأرسـلتها الى المدرسي كما وعدته ، وقمت بكتابة رسـائل الى حـوالي ثلاثمائة الى أربعمائة عـالم ومفكر من علمـاء الشـيعة وقيـاداتهم أعـرض عليهم خلاصة ما توصـلت اليه من عـدم صـحة نظرية الإمامة وعدم وجود الإمام الثـاني عشر (محمد بن الحسن العسكري) ، واطلب منهم الاطلاع على مسودة كتابي ومناقشـته ، وتقـديم ما لـديهم من أدلة وبـراهين قد لم اطلع عليهـا. أعلنت للجميع استعدادي للتراجع عن النتائج الـتي توصـلت اليها فيما إذا حصـلت على أي دليل مقنـع. وقلت للكثـير منهم بـأني على اسـتعداد لعمل حفلة وإحـراق كتـابي إذا ما اكتشـفت أي دليل مخفي عني، وأيقنت بصحة النظرية الامامية وصحة وجـود الإمـام الثاني عشر.

ووجهت رسـالة مفتوحة الى الحـوزة العلمية في قم بعقد نـدوة علمية لمناقشة هذا الموضوع، واسـتعدادي للمشـاركة فيهـا. ولم أتلق بالطبع أي جواب.

وبعد فترة من المناقشة والحوار لمدة خمس سنوات قمت بطبع الكتاب سنة 1997 في لنـدن، فصـدرت منذ ذلك الحين عشـرات الكتب التي تحاول إثبات ولادة (الإمـام محمد الحسن العسـكري) ووجوده، وقد قمت بمراجعتها والـرد على أهمها في كتـاب خـاص تحت عنـــوان (حـــوارات أحمد الكـــاتب مع العلمـــاء والمراجع والمفكـرين حـول وجـود الإمـام الثـاني عشر محمد بن الحسن العسكري) وطبعته سنة 2007 وقلت في ذلك الكتاب بأن معظم الردود يؤكد ما وصلت اليه من أن موضوع "الإمام الثاني عشـر" ما هو إلا افـتراض فلسـفي وهمي أكـثر منه حقيقة تاريخيـة، وإن أغلب الردود تحاول إثبات وجـوده عن طريق الاسـتدلال النظـري أو ما يسمى بالدليل العقلي، وتفتقر الى الأدلة العلمية التاريخية.